القرآن والرسول

د. التهامي نقرة

مما يتبادر من عنوان هذا الموضوع أن البحث قد يتجه وجهة تكشف عن مدى تأثر الرسول صلى الله عليه وسلم بالقرآن وتأثيره به في الدعوة الاسلامية كما قالت عائشة – وقد سُئلت عن خلق الرسول – : «كان خُلُقُه القرآن» (1) وهو جانب هام من جوانب الموضوع جدير بالبحث. ولكنا سنقتصر هنا على دراسة قضية أساسية هي نقطة الانطلاق في فهم القرآن ومفترق الطرق في منهج دراسته وتحليله بين من يعتقدون أن القرآن من عند الله وحده، وبين من يرون أنه من إنتاج محمد صلى الله عليه وسلم.

فهذه القضية اذن هي «مصدر القرآن» وهي قضية لم تكن موضوع جدال لدى العلماء المسلمين لو لم يثرها بعض الباحثين من المستشرقين وغيرهم، وبنوا على آرائهم فيها نتائج وأحكاما لا تتفق وروح القرآن وقدسيّته. ولعل من أهم الاسباب الرئيسية التي حالت دون ادراكهم لحقيقة القرآن ومصدره عدم تصورهم الصحيح لقضية مبدئية أخرى وهي :

الوحي والنبوة : فان من لا يدرك طبيعة الوحي ولا خصائص النبوة استهدفت دراسته للقرآن الى خطر الخروج عن المنهج الصحيح لهذا النوع من المعرفة. ومن هنا كان خطأ بعض الباحثين عند تحليلهم لنفسيات الأنبياء، وفي تفسيرهم لظاهرة الوحي خطأ جوهريا أبعدهم عن الوجهة السديدة في معالجة هذا الموضوع :

---

1) رواه مسلم ج : 6/116 (ط : مصر 1328 هـ)

فقولد تزيهر مثلا يعلّل ايمان النبيء بنبوّته تعليلا يركّب فيه حظه من المعرفة التي لا تعدو المحسوس، لأنه لا يؤمن بأن مصدر وحي الأنبياء هو الله، بل ان أمر الأنبياء في رأيه مسألة نفسية ترجع الى تشبع المرء بحالة خاصة من فرط استغراقه فيها، ويحاول تطبيق ذلك على محمد صلى الله عليه وسلم، ولكن في منطق يتجافى عن الواقع والحصافة. فهو ينسب المعرفة الدينية التي تلقاها من الوحي الى عنصرين: أحدهما خارجي يرجع – حسب زعمه – الى ما استقاه من معرفة دينية بسبب اتصاله باليهود والنصارى وأخذه عنهم، وثانيهما داخلي نفساني يرجع الى تأملات الخلوة التي أثارت نفسه، والأحلام والرؤى التي فرضت نفسها على مخيلته. فهو يقول : (فتبشير النبيء العربي ليس الا مزيجا منتخبا من معارف وآراء دينية عرفها واستقاها بسبب اتصاله بالعناصر اليهودية والمسيحية التي تأثر بها تأثرا عميقا، والتي رآها جديرة بأن توقظ عاطفة دينية حقيقية عند بني وطنه، وهذه التعاليم التي أخذها من تلك العناصر الأجنبية كانت في رأيه كذلك ضرورية لتثبيت ضرب من الحياة في الاتجاه الذي تريده الإرادية الإلهية...

لقد تأثر بهذه الأفكار تأثرا وصل الى أعماق نفسه، وأدركها بايحاء قوة التأثيرات الخارجية، فصارت عقيدة انطوى عليها قلبه، كما صار يعتبر هذه التعاليم وحيا إلهيا) (1)

ويقول في موطن آخر : (لقد كان مسقط رأس محمد مركزا من المراكز الهامة الخطيرة لعبادة الأوثان والأصنام، كما كان مقرا للكعبة المقدسة والحجر الأسود، ومع هذا كانت المادية، وكبر رياء الجاهلية وتحكم الأغنياء في الفقراء، هي المميزات السائدة عند أشراف (مكة).

---

1) فولد تزيهر : العقيدة والشريعة فى الاسلام : ت : **محمد يوسف موسى** وزميله – 12 (ط : مصر 1948)

رأى محمد هذا، فأخذ يشكو من اضطهاد الفقراء، وطمع الأغنياء، وسوء المعاملة، وعدم المبالاة بالصّالح العام، وواجبات الحياة الإنسانية..

وعندئذ قابل بين هذه الأمور التي أثارت نفسه، والأثر الذي كان باقيا وحيّا فيه، وهو الأثر المدين به للتعاليم التي سبق ان تلقاها وتفتحت لها نفسه وأشربها قلبه) (1)

أما الوحي كعلم أفاضه الله على روح محمد وقلبه بطريقة غير الطرق الكسبية للعلم، وفوق الإلهامات النفسية المأثورة عن بعض الخاصة، وخلاف ما هو مقرر في علم النفس والفلسفة وسير الحكماء والعلماء — فان (قولد تزهير) لا يتصوره الا أعراضا (باتولوجية) يصاب بها أفذاذ من الرجال، فهو يقول : (لا نريد ان نتتبع خطوة فخطوة المراحل (الباتولوجية) التي نشأ فيها الشعور بهذا الوحي واعتقاده وتثبيته في نفسه. ومن أجل هذا علينا أن نتذكر كلمة ذات معنى قالها (هارناك) عن الأمراض التي تصيب الرجال الذين هم فوق البشر دون سواهم والتي يستقون منها حياة جديدة كانت قبل ذلك مجهولة كما يتخذون منها قوة تهدم جميع العقبات، ومن ذلك حمية النبيء أو الحواري) (2) وقوستاف لوبون لم يفتأ أن جعل الحالة التي تعتري النبيء صلى الله عليه وسلم عند تلقي الوحي أشبه بالنوبة التي تعتري المهوّسين من ذوي الحس المرهف، والمزاج الحار، والشعور الحاد، رغم إقراره بحصافة رأيه وسلامة فكره، إذ يقول : «قيل إن محمدا كان مصابا بالصرع، ولم أجد في تواريخ العرب ما يبيح القطع في هذا الرأي. وكل ما في الأمر ما رواه معاصرو محمد وعائشة منهم، من أنه كان اذا نزل الوحي عليه اعتراه احتقان وجهي فغطيط فغشيان. واذا عدوت هوس محمد ككل مفتون وجدته حصيفا سليم الفكر). ثم يقول :

---

1) المصدر السابق : 13 .
2) المصدر السابق : 12 .

(ويجب عدّ محمد من فصيلة المتهوّسين من الناحية العلمية كأكثر مؤسسي الديانات، ولا كبيرَ أهميةٍ لذلك. فلم يكن ذوو المزاج البارد من المفكرين هم الذين ينشؤون الديانات ويقودون الناس، وانما أولو الهوس هم الذين مثّلوا هذا الدور.... وهم الذين أقاموا الأديان، وهدّموا الدول، وأثاروا الجموع، وقادوا البشر. ولو كان العقل لا الهوس هو الذي يسود العالم لكان للتاريخ مجرى آخر» (1)

ان الأعراض النفسية والفيزيولوجية التي أشار اليها قولد تزيهر، ولوبون في حديثهما عن محمد صلى الله عليه وسلم وسائر مؤسسي الديانات من الأنبياء، لا تعدو أن تكون اصابات لأمراض «عصابية ناجمة عن مجموعة من الإنحرافات النفسية: كالتوتّر النفسي، والكآبة والقلق، والوسواس، والأفعال البشرية اللاإرادية، والشعور بوهن العزيمة، والعجز عن تحقيق الأهداف، والمخاوف، والأفكار السوداء التي تحاصر الفرد في يقظته، فتدعه مشتت البال، وفي النوم فلا تدع للسبات الى جفنية سبيلا (2)

ان من التحكم والمجازفة أن يُعدّ (لوبون) محمدا صلى الله عليه وسلم من فصيلة المتهوسين، ولم يثبت تاريخيا قبل البعثة ولا بعدها انه كان من ذوي الوساوس، او السلوك الشاذ والتصرف الغريب أو نحو ذلك من الإنحرافات النفسية التي لا بد لها من انعكاسات وردود فعل.

ألم تشهد خديجة وتعرّفه بحقيقته لما جاءه الحق وهو في غار حراء لتدفع عنه الخوف مما رأى وسمع ؟ «كلاّ والله ما يخزيك الله أبدا. انك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتُكسب المعدوم، وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق (3)

---

1) ق لوبون Le Bon : G. حضارة العرب : 141 ـ 145 (ط مصر : 1948) .
2) مصطفى فهمى : الدوافع النفسية : 175 (دار مصر للطباعة) .
3) رواه البخارى . ج : 1 . ص : 3 . (ط : الآستانة : 1315 هـ) .

فما أبعد هذا الكمال الإنساني عن الهوس الذي قد يملي على صاحبه مواقف غريبة وأفعالا ينبو عنها ما نسب اليه ربه في قوله : «وانك لعلى خلق عظيم (1)

ان الوحي الإلهي لا يفهم حقيقته إلا من أوتى نصيبا من علم الإجتماع ، وحكمة الوجود وسننه، وأصول العقائد. والعلماء المسيحيون فيه بين افراط وتفريط

فالمتدينون منهم يفسرونه بأنه حلول روح الله في روح الملهم. ومن حلّ فيه روح الله صار إلها. إن المسيح لم يكن عندهم الها الا بهذا الحلول

فهو في اعتقادهم طبيعة مركبة من طبيعتين امتزجتا وصارتا واحدة. هو مركب من الناسوت واللاهوت

والماديون يصوّرون الوحي بالصورة التي لايقبلها الا عقل لا يؤمن صاحبه بما وراء الطبيعة من عالم الغيب. بيد أن العقل ليس مستقلا بالإحاطة بجميع المطالب، ولا كاشفا للغطاء عن جميع المعضلات(2) اذ أن الموجودات أكبر وأبعد مدى من ظواهرها التي يزعم العلم التجريبي أنه يستطيع هضمها، ولكن قدرة العقل على تحصيل المحسوس هي التي تيسّر له الانتقال الى غير المحسوس ، لأن من المدركات العقلية ما ليس بحسّي.

ومن ناحية أخرى فإن البحوث الخاصة بالأديان وبتطور العقائد عبر التاريخ قد زودت علم النفس بالعناصر الأولى التي قام عليها علم النفس الديني. غير أنها لم تكشف الا عن الظواهر الخارجية للدّين كما يحياها المجتمع، ولا شأن لها بالدين من حيث هو حياة نفسية يحياها الفرد العادي فضلا عن النبيء لاتصاله الروحي بما هو إلهي.

يقول فلورنوا « Flournoy » : لنكن على يقين أن علم النفس

---

1) سورة القلم 4 .
2) الغزالي : المنقذ من الضلال : 86 (القاهرة 1308 هـ) .

مهما كانت درجة الكمال التي بلغها، سيبقى عاجزا عن حلّ الألغاز المحيّرة التي يلقيها الكون والحياة علينا، ولن ينتهك في يوم ما حقّ النفوس الدينية في أن تصوغ عقائدها بشأن القول الفصل في الحقيقة والمصير. ويعترض « فلورنوا على المتحمسين للنزعة العلمية تحمسا يجعلهم يرون الدّين وما يتصل به من غيبيات، لا ينبغي أن يضيع فيه العالم وقته، ولا ينبغي أن يكون موضوعات العلم، فيعتبر أن في القطع سلفا بذلك مجافاة للروح العلمية الأصيلة التي تتطلب من الباحث النزيه ألا يتصدى لإنكار قضية أو اثباتها الا بعد فحص تجريبي ما دام ذلك القطع يستند الى تحقيق تجريبي (1)

(ومن البيّن ان العلوم التجريبية بمعناها الاصطلاحي الدقيق قد نشأت في عصر النهضة حين قرر (قاليليو Galiliée) وليوناردي فانسي (L. de Vinci) أنه من الممكن تعليل أحداث الطبيعة وظواهرها دون أدنى تدخّل لأية قوة غير طبيعية. ولم تلبث هذه العلوم – الجديدة التي لا تعتمد الا على التجربة والرياضة أن اعتقدها عدد من المفكرين، وكان بعضهم جدّيّا، والبعض الآخر مستهترا. ولكن كلا الفريقين لم يتردد في أن يعلن على الملإ أن هذه العلوم الحديثة لا تلتئم ألبتّة مع الروحانية التي أتى بها الوحي. ثم جعلوا يستعينون بتلك العلوم في تأييد مذاهب الماديّين، وفي نشر مبادىء الريبة والالحاد (2)

وهكذا فان تفسير ظاهرة الوحي الالهي – وما كان يعتري النبيء عند تلقّيه من حالات خاصة ناشئة عن انسلاخه من البشرية الجسمانية، واتصاله بالملكية الروحانية – بالهوس أو الصرع ونحو ذلك من

---

(1) T. 2, nº 9 - Paris, 1903

2) محمد غلاب : المعرفة عند مفكرى المسلمين ـ 101 ـ 102 (مصر1969) .

الأنحرافات الفسيولوجية أو النفسية على ضوء هذه العلوم التجريبية أو التحليل النفسي ضرب من التحكم أو جهل لحقيقة النبوّة.

وهل يكفي لصنف من اصناف العلوم أن يصل الى حدّ كبير من الدقة والتطور ليفرض طرقه في البحث على الميادين الأخرى، وينتصب رائدا ومعيارا ؟

ان تطور منهج من المناهج العلمية لا يعطى كمعيار خارج ميدانه (1)

اثر الوحي السماوي

وفي نظري أن البحث في ماهية الوحي الالهي كالبحث في ماهية النفس لا ينتهي الى نتيجة حاسمة يثق بها الذين لا يؤمنون بالنبوة ولا بخصائصها ولا يحكّمون في مثل هذه القضية سوى العلوم التجريبية التي يعالجون بها المسائل الروحية خارج بيئتها كما يعالجون سائر القضايا

ولعل البحث في الوحي السماوي يكون أجدى وأقوى موضوعية لو صرف الى مضمونه ومحتواه وماله من أثر عميق في الأفراد والجماعات.

لقد بيّن كثير من مفكري الاسلام اضطرار كافة الخلق الى الأنبياء لأجل هدايتهم وتزكية نفوسهم بما يصلح أحوالهم في دنياهم، و يُعدّهم لحياة أسمى من هذه الحياة الفانية. ذلك أن الأنبياء وان كانوا من البشر لهم من السلطان الغيبي والتأثير الوجداني على نفوس الناس خاصتهم وعامتهم — باعتبار أن ما يبلّغونه هو وحي من الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه — ما ليس للحكماء والفلاسفة والقادة.

ولا أدلّ على هذه الحقيقة من التاريخ الذي أثبت أن ما جاءوا به ودعوا إليه كان أعظم كسب للانسانية، وهم الذين ارتفعوا بها إلى أسمى

---

1) محمد عزيز الحبابى : الشخصانية الاسلامية : 69 (مصر : 1969) .

مراثبها العقلية والخلقية. ولولاهم لكان الانسان أشبه بحيوان الغاب. فلا مجال إذن مع الواقع الملموس للجدال.

ومن ناحية أخرى فان الفرد لا يتخلى عن عقائده بمجرد أن تغزو الأفكار الحرة ذهنه، لأن دوافع في أعماق نفسه تعرقل تحرره العقائدي، ورغبات فيها تشبعها تلك العقائد. وليس من اليسير التضحية بها، لأن المسألة ليست استبدال شيء بآخر، انما هي تحوّل كلي للنفس من اتجاه الى اتجاه مغاير. وليس يكفي كي يتم هذا التحول ان تدخل الذهن بعض أفكار علميه باردة، أو معادلات رياضية مجردة (1)

ومن يملك هذه القوة النفسية ويقدر على هذا التحول غير الأنبياء ؟

ويكفي أن يقوم هذا دليلا على نبوتهم. «وهل يطلب ممن بنى ناطحات السحاب، وشيّد المدن والعواصم شهادة من جامعة أو ورقة من مهندس تُثبت معرفته بفنّ البناء. ؟

واذا طلبنا الدليل على نبوّة محمد بعدما أتى بما أتى به، كنّا كمن يطلب ورقة من الباني العظيم تنصّ على علمه ومعرفته بعد أن انتهى من إقامة الصروح (2)

أيّ أمّيّ في التاريخ غير محمد صلى الله عليه وسلم يقطع مرحلة الشباب وديعا هادئا لم يؤثر عنه علم ولا حكمة، ولا شعر ولا خطابة، ولاإبداع العباقرة، ولا وثبات الأبطال والزعماء، ثم ينفتح في الأربعين على عالم حيث الله يدبّر النظام، ويهيمن على أسراره، فيصلح أديان البشر : عقائدها وآدابها وشرائعها، ويحدث ثورة روحية اجتماعية لا مثيل لها في تاريخ الانسانية، بعد استكمال سنّ لا يتأتّى لمن بلغ مثلها «أن يبتدىء أو يبتدع فيها علما أو فنا، أو يسنّ فيها شرعا، أو ينهض

---

1) عبد المنعم المليجى : تطور الشعور الدينى : 300 (مصر 1955) .
2) محمود جواد مغنية : معالم الفلسفة الاسلامية ـ 159 ـ 160 (بيروت) .

في العالم بانقلاب عظيم، ما لم يكن قد ظهر استعداده له، وأخذ مقدّماته في ريعان الشباب» (1) ؟

لم يكن هذا الذي سما بنفسه وهمته، وحمله على أن يدفع بالطاقات البشرية الى الانشاء والانطلاق والسموّ غير الوحي السماوي يضيء له السبيل.

إنه القرآن الذي أبدع الله فيه من فنون القول ما أعجز مقارعيه من أهل البيان عن معارضته، وأودع فيه من بليغ المعاني الحكميّة، وسامي التشريع، وروعة الاشارات العقلية والعلمية ما لم تبلغ اليه عقول البشر في عصر نزوله، وفي عصور بعده متفاوتة. فكان الوحي نفس المعجزة، والمعجزة نفس الوحي. وهي دعوة برهانها منها، ودليلها متصل بها. وهو المعنى الذي أصّله حديث الصحيح عن أبي هريرة ان النبيء صلى الله عليه وسلم قال «ما من نبي الا أوتي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وانما كان الذي اوتيت وحيا أوحاه الله اليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة» (2)

أفيكون هذا القرآن الذي لو نزل في هذا العصر لما اختلفت نظرته للكون، ولا وصاياه للانسان ــ وقد حوى من كنوز المعرفة ما لم يحوه سفر ــ نابعا من استعداد محمد الشخصي، أو مما اقتبسه في بيئته وأسفاره من أهل الكتاب، أو بعض الأعراب ... ؟

من آراء المستشرقين في القرآن وقصصه :

إن كثيرا من المستشرقين ممن عُنوا بالدراسات الاسلامية يكادون يتفقون في الحكم على القرآن بأنه ليس من عند الله ، وان محمدا صلى

1) محمد رشيد رضا : الوحي المحمدي : 302 (مصر 1948) .
2) أخرجه عياض في الشفاء ــ ج : 13 ــ 334 ــ (ط : العثمانية 1315) .

الله عليه وسلم استقى مادته ولا سيما قصصه من الأحبار والرهبان الذين كان يلقاهم في أسفاره أو يتصل بهم في مكّة

ويستدلون على ذلك بأن دراسة القصص القرآني على ضوء ما كشفت عنه الوثائق التارخية من العهدين وغيرهما من كتب التاريخ والأخبار أبانت عن مفارقات تشكك في صحته، لأنه كان يتلقى هذه الأخبار عن الأرقاء المسيحيين الذين كانوا يخدمون السادة من قريش وكانوا يروون ما تناقلوه من قصص ديني محرّف.

يقول درمنقام « E. Dermanghame » متحدثا عن كفالة ابي طالب لمحمد بعد وفاة جده «انه لم يكن غنيا، فلم يتح له تعليم الصبي الذي بقي أمّيّا طول حياته، ولكنه يستصحبه في التجارة، فيسير والقوافل خلال الصحراء يقطع هذه الأبعاد النائية، وتحدق عيناه الجميلتان بمدين، ووادي القرى، وديار ثمود، وتستمع أذناه المرهفتان الى حديث العرب والبادية عن هذه المنازل، وماضي نبيها. ويقال : انه في احدى هذه الرحلات الى الشام التقى بالراهب (بحيري) في جوار مدينة بصرى، وان الراهب رأى فيه علامات النبوة على ما تدل عليه أنباء كتبه» (1)

ولا شك أن من يعمد الى مخالفة الناس فيما تواتر عندهم، ويأتي على ما يرون ويعتقدون ينبغي أن يكون لديه من الحجج والبراهين ما يقوى على نقض ذلك ودحضه

فكيف إن كان حكمه لا يستند الى دليل نقلي يثبته التاريخ، أو برهان عقلي صحيح ؟

فكتب التاريخ التي أفاضت القول في سيرته صلى الله عليه وسلم لم تذكر أنه سافر قبل البعثة أكثر من مرتين. وكان سفره في تجارة الى

1) الوحى المحمدى : 86 .

الشام، مرة في طفولته مع عمه أبي طالب، وأخرى في شبابه مع (ميسرة) غلام خديجة. ولم يتجاوز في المرتين سوق بصرى. (والقوافل التي تذهب الى الشام لم تكن تمر بمدين وهي في أرض سينـــــاء) (1)

ومن أين (لدرمنقام) ان محمدا كان أثناء رحلاته يستمع الى حديث العرب عن ديار ثمود ونبيّهم ؟

ويقول قولد تزيهر : (لقد أفاد محمد من تاريخ العهد القديم – وكان ذلك في أكثر الأحيان عن طريق قصص الأنبياء – ليذكّر على سبيل الإنذار والتمثيل بمصير الأمم السالفة الذين سخروا من رسلهم ووقفوا في طريقهم) (2)

ويقول : (ان محمدا أخذ يجمع ما وجده في اتصاله السطحي أثناء رحلاته التجارية مهما كانت طبيعة هذا الذي وجده، ثم أفاد من هذا دون أي تنظيم) (3)

ويقول في (مذاهب التفسير الاسلامي) : كان هناك ما ورد في الكتب السابقة من مختلف القصص التي أجملها محمد وقدمها في منتهى الإيجاز وأحيانا على وجه متداخل) (4)

فما هي الرحلات التجارية التي كان يعنيها قولد تزيهر ؟ وهل كان محمد وتجار مكة من رواد العلم والتاريخ بالمعنى الحديث فيشتغلوا بالبحث عن الأمم والأديان ؟ ثم أيّ خلل أو تداخل رآه في القصص القرآني حتى يحكم عليه به؟ انه قول مجرد عن الدليل. فهو لم يذكر ولو على سبيل المثال قصة واحدة من القرآن، فيقارنها بما يثق به من أخبار القصص

---

1) المصدر السابق : 86 .
2) العقيدة والشريعة فى الاسلام : 15 .
3) المصدر السابق : 25 .
4) المصدر السابق : 75 .

الديني. إنه لا يصح التنبؤ بما ستسفر عنه هذه المقارنة. لذلك فكل حكم مسبّق لا تؤدي اليه نتيجة البحث لا يعتدّ به

وقد كان مشركو مكة يزعمون أن القصص التي جاء بها القرآن، إنما تعلمها محمد من نصراني أعجمي اللسان كان بمكة. وكان رد القرآن على زعمهم (ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر، لسان الذي يلحدون اليه أعجمي، وهذا لسان عربي مبين) (1)

وذكر الطبري عند تفسيره لهذه الآية أسماء بعض الأشخاص الذين يزعم المشركون أن محمدا كان يتصل بهم ويأخذ عنهم هذه الأخبار.

قال الباقلاني : (ان ما انطوى عليه القرآن من قصص الأولين وسير الماضين وأحاديث المتقدمين وذكر ما شجر بينهم مما لا يجوز علمه الا لمن كثر لقاؤه لأهل السّير، ودرسه لها، وعنايته بها، ومجالسته لأهلها، وكان ممن يتلو الكتب ويستخرجها، مع العلم بأن النبيء صلّى الله عليه وسلم لم يكن يتلو كتابا ولا يخطه بيمينه، وانه لم يكن ممن يُعرف بدراسة الكتب ومجالسة أهل السير والأخذ عنهم، ولا لقي إلا من لقوه، ولا عرف الا من عرفوه، وانهم يعرفون منشأه وتصرفه في اقامته بينهم، وظعنه عنهم، فدل ذلك على ان المخبر له عن هذه الأمور هو الله سبحانه وتعالى علام الغيوب) (2)

وقد سار الحداد في هذا الاتجاه، ولكنه سلك طريقا ملتويا، اذ حاول أن يخرج بالنصوص القرآنية عن مدلولها، وتأويلها وفقا لهواه، واخضاعها الى آرائه الشخصية، ليجعل منها دليلا على ما ذهب اليه. مع تناقض واضح وخلط ملحوظ

فهو يقول : «يظهر أن اتصال محمد كان بالكتب المنحولة المفسّرة للعهد العتيق والجديد عند اليهود والنصارى، أكثر منه بالكتاب المقدس

---

1) سورة النحل 103 .
2) الباقلاني : اعجاز القرآن 51 (ط : مصر 1954) .

الرسمي، بسبب شعبيتها وكان اتصاله غالبا بواسطة البيئة وعن طريق السماع (1)

وكان العهد الثاني من الدعوة القرآنية اسرائيليا بعد هجرة جماعته الصغيرة الى الحبشة المسيحية. في هذا العهد يدعو النبيء الى التوحيد الخالص بأسلوب القصص القرآني حيث يصور موقف الحاضرين بأحوال الغابرين (2)..

«والسر الكبير في حياة محمد وثقافته الكتابية والانجيلية هو وجود العالم المسيحي ورقة بن نوفل من بني أسد، ابن عم السيدة خديجة في جوار النبيء. وهو الذي زوّجه ابنة عمه. فقد أجمعت الآثار على أن ورقة تنصر، وكان يترجم التوراة والانجيل الى العربية. فهو اذن عالم مسيحي كبير، يدعو بالترجمة إلى المسيحية. وقد عاش محمد في جواره خمسة عشر عاما قبل مبعثه : الا تكفي هذه المدة لنابغة العرب محمد بن عبد الله لكي يأخذ عن نسيبه شيئا من علوم التوراة والانجيل ؟ وينص صحيح البخاري أيضا أن رقة هو الذي ثبّت محمدا في دعوته وبعثته لما عاد خائفا من غار حراء. وينص أخيرا على أن الوحي القرآني فتر لما توفي ورقة، وحاول محمد الانتحار مرارا لفقده وفتور الوحي. ونجد في المدينة في معيّة النبيء حاشية مسيحية ويهودية قد أسلمت أو سايرت الاسلام : نجد بلال الحبشي مؤذن النبيء، وصهيب الرومي المسيحي الثريّ، وسلمان الفارسي المسيحي الاصل، وعبد الله بن سلام اليهودي الوحيد الذي أسلم في المدينة مع كعب الأخبار. وهل كان حديث هذه الحاشية الكريمة الدائم سوى التوراة والانجيل ؟

فوجود العالِم المسيحي مترجم الكتاب الى العربية ورقة بن نوفل في جوار محمد خمسة عشر عاما قبل البعثة، واعواما بعدها في أوائل الدعوة، ووجود هذه الحاشية الكريمة في المدينة مع النبيء في كل زمان ومكان، حجة قاطعة على ان بيئة النبيء والقرآن كانت كتابية من كل نواحيها،

---

1) القرآن والكتاب : ق : 2 اطوار الدعوة القرآنية : 1062 .
2) المصدر السابق : 1063 .

وأن ثقافة محمد والقرآن كتابية في كل مظاهرها وذلك في معزل عن الوحي والتنزيل (1).....

«والقرآن يصرح بان محمدا يلتقي بالكتاب بدون شك : «ولقد آتينا موسى الكتاب فلا تكن في مرية من لقائه، وجعلناه هدى لبني اسرائيل» (2) فالكتاب موجود بالعربية، ومحمد يلتقي به ويتصل بأهله» (3).

أما ما يراه الحداد من اتصال محمد بالكُتُبِ المنحولة للعهدين فليس الا صدى لما قاله قولدتزيهر، وكذلك بلاشير في كتابه «معضلة محمد» اذ يقول : «ان مقارنة النصوص القرآنية بالنصوص الانجيلية غير الرسمية كانجيل الطفولة توضح ما كان بينهما من وثيق الصلات، وليس هذا بالأمر الغريب متى أدركنا القيمة التي كانت تكتسيها الأناجيل غير الرسمية في عصورنا الوسطى (4).

فهو يعتبر ان ما ورد في المرحلة المكية الاولى من القصص القرآني يشبه لا محالة القصص اليهودي والمسيحي. ولكنه يتساءل عن وجود اتصالات مستمرة بين محمد والفقراء المسيحيين بمكّة. فلا ينفي هذه الاتصالات بل يؤكد ثبوتها، ولكنه يحترز في اثبات أن يكونوا هم المخبرين له بذلك القصص، ويعلل هذا الاحتراز تعليلا منطقيا فيقول : «وها أنّا نشعران النقاش سيحتدّ، فالمجادلون المعارضون للاسلام اكتشفوا مادة ثرية جدا في تشابه القصص القرآني والقصص اليهودي المسيحي.

فهل كانت لمؤسس المذهب الاسلامي علاقات مستمرة ومتينة بالفقراء المسيحيين بمكة ؟

يمكن لنا ان نسلّم بوجود هذه العلاقات بدليل ما رده القرآن على تهم

---

1) المصدر السابق : ق 2 اطوار الدعوة القرءانية : 1059 ـ 1060 .
2) سورة السجدة : 23 .
3) القرآن والكتاب ق : 3 ـ اطوار الدعوة القرءانية : 1056 .
4) R. : Blachère. Le problème de Mahomet P. : 59 P.U.F. - (Paris 1952)

المشركين «وقال الذين كفروا ان هذا الا إفك افتراه واعانه عليه قوم آخرون، فقد جاءوا ظلما وزورا وقالوا أساطير الأولين. اكتتبها فهي تُملى عليه بكرة واصيلا (1) وفي هذا الصدد يدلي الطبري في تفسيره بأسماء بعض العبيد المسيحيين الذين عملوا كمخبرين لمحمد في مكة، غير أنه يجب ألا نثق في هذا الخبر أكثر مما يجب. فهو لا يفسر أبدا المكانة الممتازة التي يتمتع بها موسى والحواريون في النصوص القرآنية التي ندرسها (2).

ولا بد هنا من الاشارة الى ان الاسفار الخمسة التي يسمونها «التوراة» لا دليل على ان موسى هو الذي كتبها ولا هي محفوظة عنه بدليل ما فيها من الأخبار التاريخية وخاصة ذكر كتابة موسى للتوراة ووضعها في جانب من التابوت، وذكر موته، وعدم مجيء مثله من الأنبياء الى عهد كتابتها. وقد قامت الأدلة عند الباحثين الأوروبيين وغيرهم على انها كتبت بعده بزمن طويل (3) بغير لغة العصر والبيئة التي ترجع اليها اخبار الوحي. وهي العبرانية القديمة، وانما كتبت باللغة الآرمية التي لم لم تكن موجودة في عصر موسى عليه السلام.

واما الاناجيل الاربعة الرسمية وهي كتب في سيرة المسيح عليه السلام وشيء من تاريخه وتعليمه، فليس لها سند متصل عند أهلها ولم تكتب بالآرمية (اللغة العبرانية الحديثة) التي كانت سائدة في عصر نزول الوحي على عيسى عليه السلام، وانما كتبت باليونانية والسريانية باختلاف الأناجيل. وكذلك يقال في سائر الكتب المنسوبة الى الأنبياء في مجموع (الكتاب المقدس) (4) والذي اعتاد المسيحيون ان ينظروا اليه كوثيقة

---

1) سورة الفرقان : 4 ـ 5 .
2) Le Problème de Mahomet. P. 60.
3) محمد رشيد رضا : تفسير المنار ـ ج 3 ـ 158 (ط : مصر 1954) .
4) الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور : نشرية جمعية المحافظة على القرآن بتونس (المعجزة الخالدة) 37 .

انسانية يمكن بحثها بنفس الطرق التي تبحث بها الوثائق التاريخية. وبالرغم من أنهم يدركون قيمته كتنزيل الهى في الأمور الدينية البحتة، فهم يعتبرونه نتاجا خاصا بوقته فقط، وانه متأثر ببعض نواحي النقص البشري لما فيه من أخطاء علمية وتاريخية.

قال «هنري مارو» «علينا ان نثبت بادىء ذي بدء أن تعاليم الكتاب تكوّن وحدة منسجمة، ولكن القصص التوراتي لن تتعدى منزلة الخرافة ما لم نتوصل الى تدوين وقائعها ضمن نطاق التاريخ العام ونجد لها مكانا في التواريخ المقارنة لأمبراطوريات الأرض» (1).

ومن ناحية اخرى فان فكرة الشعب التي تحكي عنها التوراة تخالف عقيدة مصنّفي التوراة، وكذلك النقوش التي تفسر فكرة الشعب تخالف فكرة التوحيد.... ولكن العبرانيين انفسهم لم يبقوا على فكرة التوحيد كما علّمهم الأنبياء، بل كلما بعدوا عن عصر النبيء ابتعدوا عن تعاليمه.

وفي روايات التوراة نرى ان الله الذي خلق الأرض والسماوات أصبح إله بني اسرائيل فقط، فإنّ موسى لما ذهب إلى فرعون قال له : «هكذا يقول الرب إله اسرائيل: أطلق شعبي ليعبّدوا إلي في البرية» (2)

فهذا الاله المحصور في شعب بني اسرائيل هو كأي صنم آخر كانت القبائل تعبده (3) وبمرور الزمن أخذ بنو اسرائيل يشخّصون الاله وينسبون ليه عواطف الانسان واعماله. فذكروا انه كان يتمشى في الجنة وانه كان يصارع ويأكل ويشرب ويخشى مركبات الجبال، وانه دفن موسى حين مات في موآب. ولم تذكر التوراة أي شيء عن خلود الروح ولا عن البعث والجزاء، بينما نجد الكثير من قصص القرآن يهدف الى اقناع العقول بأن البعث حق، لغرس الايمان به في القلوب.

---

1) جوزاف هورس . قيمة التاريخ : 31 (بيروت)
2) سفر الخروج : الاصحاح الخامس ـ 1 ـ .
3) سفر الخروج : الاصحاح الخامس 1 .

ثم ان من يدرس قصص آدم ونوح وابراهيم ولوط ويعقوب ويوسف في القرآن وفي سفر التكوين من التوراة، يتجلى له الفرق واضحا بينهما في محتوى القصة واسلوب عرضها والغرض المستخلص منها.

فبينما نجد في قصصهم القرآني من عدل الله وفضله وسننه في خلقه، ومن كمالات انبيائه للاهتداء بهديهم وسيرتهم ما يسمو بالنفوس ويزيدها هدى وايمانا، نجد في قصصهم التوراتي وصف الله بما هو منزه عنه من الجهل والندم على خلقه الانسان وانتقامه من البشر، (1). ووصف الأنبياء بما لا يليق بهم ورميهم بالمعاصي والفواحش (2)، مما تتبرأ منه الكتب السماوية المقدسة.

كما نسب المسيحيون الى الله تعالى ما نفاه عنه القرآن وهو الأبوّة فذكروا من وصايا عيسى عليه السلام : (احبوا أعداءكم. احسنوا الى مبغضيكم. صلوا الذين يسيئون اليكم ويطردونكم كي تكونوا ابناء أبيكم الذي في السماوات (3).

ثم اختلف اليهود والنصارى(وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله) (4) كل ذلك يدل على ان التوحيد الخالص الذي كان يدعو اليه محمد صلى الله عليه وسلم ليس اسرائيليا كما يزعم الحداد. ثم هو يقول : (لقد آمن القرآن ونبيّه الايمان كله بنبوة المسيح ورسالة الانجيل، ولكن النبيء العربي لم يعترف ببنوّة المسيح، لأنه لم يعرفها حق معرفتها. فقد ظن أن كل بنوة تخضع حكما وضرورة لناموس الجسد، ولا تكون إلاّ بامرأة وزوج). ويستدل عقب ذلك بآيات قرآنية تنزّه الخالق عن ان يكون له ولد، وكأنّ القرآن من تأليف محمد ودن

---

1) انظر قصة نوح ـ اصحاح 9 ـ فقرات : 20 ـ 21 .
2) انظر قصة لوط : اصحاح : 19 : فقرات 30 ـ 39 .
3) انجيل متى : الاصحاح السادس .
4) سورة آل عمران : 68 .

وحي أفكاره!. وغريب أمر هذا التحكم منه، اذ تحمله عقيدته على الاستدلال بالقرآن لا ثبات مايريد اثباته من علو منزلة المسيح عليه السلام، وصدق ما جاء به، ومن وحدة الأديان في أصول العقيدة، ثم هو يعرض عن ذكر الآيات التي تؤكد ان مصدر القرآن هو الله، صنيع من يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض. والقرآن وحدة متكاملة في قصصه واخباره، واحكامه وتشريعاته، ومنهجه العقائدي، وسننه الاخلاقية، رغم اختلاف نزول آيه في الزمان والمكان – وهو مع ذلك لا يعتبره في مستوى الكتب السماوية التي أنزلها الله على الرسل، رغم اقراره بان (ما حفظ القرآن عن المسيح والانجيل والنصارى هو مفخرة للمسلمين اذا هم تجردوا عن تفاسير الشحناء والبغضاء) (1). إذْ هو ينفي الاعجاز البياني عن القرآن (2). وينفي ان يكون لصاحب الدعوة الاسلامية صلى الله عليه وسلم ما يؤيده من مِثلِ معجزات الانبياء الذين سبقوه (3) وبالتالي ينفي ان يكون اسم (احمد) ترجمة (الفار قليط) الذي بشر به المسيح في الانجيل هو محمد صلى الله عليه وسلم (4). ويرجع سبب فتور الوحي في الفترة الاولى من البعثة الى موت ورقة بن نوفل مستدلا بما ورد في البخاري : (ثم لم يلبث ورقة ان توفي وفتر الوحي) والبخاري لم يقصد ابدا ان تكون الجملة الثانية نتيجة للاولى. ولو قصد ذلك لاستعمل الفاء بدل الواو.

ثمّ إنّ ما يدّعيه من استفادة الرسول من حاشيته اليهودية والمسيحية الذين أسلمُوا أو كانوا في معيّته، فان اسلامهم حجة قائمة على صدق ما جاء به من الوحي الالهي. ولو تبين لأحدهم انه كان يتتلمذ لهم في خفاء ليتلقي عنهم ما كان يدعو اليه لانفضّوا من حوله وعادوا الى ملّتهم،

---

1) الانجيل فى القرآن : 420 ـ 421 .
2) المصدر السابق : 718 ـ 720 .
3) القرآن والكتاب : اطوار الدعوة : 672 .
4) المصدر السابق : 994 .

ولم تكن لهم تلك المنزلة الرفيعة في الدعوة الى الاسلام والذود عن حماه، والاخلاص للرسول.

ومن ناحية أخرى فانّ ما أمكن جمعه واعتماده من وثائق تاريخية تتعلق بالعصر الجاهلي لا تفيد انه يوجد أيّ تأثير يهودي مسيحي في في تلك البيئة. وقد نفى بشر فارس في دراسةٍ كتبها بالفرنسية (الشرف عند العرب قبل الاسلام) ان يكون الاسلام من صنع اليهودية والمسيحية وبحث (شدياق A.P. Chadiac) عن المصادر الانجيلية التي اعتمدها الغزالي في (الرد على الوهية المسيح بصريح الانجيل) فاكتشف انه لم تكن توجد ترجمة عربية للانجيل في عصر الغزالي، وأنّ أول نص مسيحي ترجم إلى العربية كان مخطوطا بمكتبة القدّيس (بطرس) كتب حوالي سنة 452 هـ (1060م) بيد رجل يدعى (ابن العسال) (1).

كما أثبت بعض المؤرخين ان كتاب (التاج) ترجمة عربية كاملة لأسفار العهد القديم (التوراة) قام بها في القرن الرابع للهجرة عالم يهودي شهير يدعى (سعديا الفيومي) وبعض اليهود ذكران هذه أوّل ترجمة للتوراة الى العربية.

وذكر ابن النديم نقلا عن محمد بن اسحق أن احمد بن عبد الله بن سلام مولى هارون الرشيد ترجم الصحف والتوراة والانجيل، وكتب الانبياء والتلاميذ من اللغة العبرانية واليونانية والصابئة الى اللغة العربية. (2)

وأما استدلاله بالآية السابقة على ان محمدا كان يلتقي بأهل الكتاب، فهو تفسير بالهوى لا بالمنطق إن صح التعبير. وقد اتفق الجلالان وابن عباس والنسفي وغيرهم من اعلام المفسرين على ان الضمير في لقائه يعود على موسى عليه السلام. والمعنى : فلا تكن في شك من لقائك موسى ليلة الاسراء أويوم القيامة، أو من لقاء موسى ربه في الآخرة : وهذا شبيه بما ذهب

---

1) مالك ابن نبى : الظاهرة القرآنية : (ت) عبد الصبور شاهين : 299 (ط : القاهرة)

2) مجلة المجمع العلمى العراقى لسنة 1963 م : 10 ـ ص : 164 .

اليه الحداد نفسه من تفسير الكتاب بالانجيل في مثل قوله تعالى : (واذكر في الكتاب مريم) (1).

وبعد هذه الجولات الكبيرة التي قام بها الحداد في كتبه عن القرآن، وما أثار من شبهات وأوّل من آيات، ونفى من معجزات يتساءل : (هل للقرآن من مصادر؟) ثم يجيب :) المصدر الأول للقرآن هو الله، وهذه قضية ايمانية لا تمس (2) فأي تناقض ابعد عن الروح العلمية والنظرة الموضوعية من مثل هذا ؟

ويضيق نطاق البحث عن مناقشة آراء الكثيرين من المستشرقين وغيرهم ممن ذهبوا الى ان اهل الكتاب هم مصدر القصص القرآني مثل (لامنس (Lamance) الذي قال : (حيث التفكير القرآني مسيحي يكون التعبير يهوديا) (3) و (حنازكريا H. Zakarias) الذي قال : (الاسلام محاولة يهودية قام بها ربّان مكة لتهويد العرب بواسطة محمد) (4).

ولكن لا بد من الاشارة في هذا المجال الى عنصر جديد أضافهُ الى المصدر السابق المستشرق كليمان هوار (C. Hugar) فقد زعم في فصل نشر في المجلة الآسيوية سنة 904 انه اكتشف مصدرا جديدا من مصادر القرآن هو شعر امية بن ابي الصلت (5) وقارن بينه وبين آيات من القرآن — فاستنتج صحة هذا الشعر بما يلاحظ من فروق بين ما ورد فيه وما ورد في القرآن من تفصيل لبعض قصصه كأخبار ثمود وصالح مستدلا على ذلك

---

1) القرآن والكتاب : ق ـ 2 : اطوار الدعوة : 1060 .
2) القرآن والكتاب : ق 2 ـ 298 .
3) Une adaptation Arabe du monthéisme : Biblique dans recherches des sciences religieuses : 161 - 186.
4) Entreprise Juive.
5) شاعر عاش فى الجاهلية والاسلام . وكان يخبر أن نبيا يبعث قد اطل زمانه ويؤمل ان يكون هو ذلك النبىء . فلما بلغه خروج رسول الله (ص) وقصته كفر حسدا له ، وكان رغب عن عبادة الاوثان . ولما انشد رسول الله شعره قال : آمن لسانه وكفر قلبه . وكان يحكى فى شعره قصص الانبياء (ابن قتيبة : الشعر والشعراء : 429)

بأنه لو كان هذا الشعر منحولاً لكانت المطابقة تامة بينه وبين القرآن. ثم يزعم ان استعانة النبيء به في نظم القرآن قد حملت المسلمين على مقاومته ومحوه ليستأثر القرآن بالجدّة، وليصح ان النبيء قد انفرد بتلقي الوحي من السماء.

ومن البين انه توجد مشابهة بين هذه الابيات وبين بعض الآيات القرآنية.

ويحاول توسدال ان يثبت ان نظم هذه الأبيات كل قبل الاسلام حتى لا تسقط الشبهة مصطنعا الحذر والحيطة اذ يقول : (ولكن يصعب علينا ان نصدق بان نظم هذه القصائد بلغ الى هذا الحدّ من التّهتك والاستخفاف والجرأة في أي زمن من الأزمان بعد تأسيس مُملكة الاسلام التي كانت متسعة الأطراف والأكناف، حتى يقتبس آيات من القرآن ويستعملها في مثل هذا الموضوع).

وايسر ما يبدو من جهل هؤلاء الخابطين في أمر اللغة العربية قبل الاسلام وعلاقتها بلغة القرآن الكريم – انهم يحسبون ان علماء المسلمين يلقون في بحث تلك الأبيات وصبا واصبا – لينكروا نسبتها الى الجاهلية، ولا يلهمهم الذوق الأدبي ان نظرة واحدة كافية لليقين بادحاض نسبتها الى الى امرىء القيس او غيره من شعراء الجاهلية) (1).

وهكذا نستطيع القول بأن أكثر المستشرقين لم يتوصلوا الى تكوين فكرة صحيحة عن مصدر القرآن وقصصه، وعن شخصية محمد صلى الله عليه وسلم والوحي القرآني الذي انزل عليه، ولعل سبب ذلك يرجع في كثير من الأحيان الى قصور ادراكهم لحقيقة الوحي الالهي والى مبالغتهم في النظرة التاريخية ومحاولة ارجاع كل شيء في القرآن وخاصة قصصه الى نموذج قديم في كتب العهدين أو في الشعر الجاهلي. وقد عارض (تور اندرية Tor Andrac) هذه الطريقة في البحث وأشار الى ان جوهر النبوة لا يمكن تحليله الى مجموعة من آلاف العناصر

---

1) العقاد : اسلاميات : 51 . ـ 53 (ط : مصر . 1969)

الجزئية، ومهمة الباحث في رأيه ان يدرك كيف تتألف من العناصر والمؤثرات المختلفة وحدة جديدة أصيلة تنبض بالحياة وفي نظرة موضوعية عميقة (1)

الذات المحمدية والوحي القرآني

ولو كان القرآن والحديث صادرين عن نبع واحد ففيم هذا البون الشاسع بينهما في اسلوب العرض وطريقة التعبير؟ وكيف يستطيع شخص واحد ان ينطق بكلام فيقول إنه قرآن من عند الله، ثم ينطق بكلام آخر يختلف عنه اختلافا لا يتهيأ لمصدر واحد مهما كان المتكلم صناعا أو حذورا فيقول انه من كلامه ؟ وكيف يمكن التمييز والتفريق في نفس واحدة وعقل واحد وادراك واحد بين نوعين من الكلام البليغ، (2) لكل منهما طابعه وصياغته الخاصة ؟ وماذا كان يصدّ الرسول عن نسبة شرف القرآن العظيم إليه لو كان من انشائه وتأليفه ؟

وبالرجوع الى ما جمع من شعر ابن ابي الصلت في كتب تاريخ الادب العربي لاحظنا ان المسيحيين من العرب والمستشرقين مثل الأ ب (شيخو) قد عنوا بجمع هذا اللون من الشعر الديني أكثر من سواهم.

ولمزيد الايضاح نورد على سبيل المثال هذه الآيات وما يتفق معها من شعره :

(فتولّ عنهم يوم يدعو الداعي الى شيء نكر. خشّعا ابصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر (3).

---

1) محمد كامل عيدا : مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ـ ج : 4 م : 44 ـ 1969 . ص 797 .
2) محمدلطفي جمعة : ثورة الاسلام وبطل الانبياء : 587 (ط:القاهرة : 1958)
3) سورة القمر : 6 ـ 7 .

(انا جعلنـا مـا على الأرض زينـة لهـا لنبلوُهم أيهم أحسن عملا. وانا لجاعلـون ما عليهـا صعيـدا جرزا) (1).

(كلمـا القي فيهـا فوج سألهم خزنتهـا الم يأتكم نذيـر ؟ – قالوا بلى .....) (2)

ويوم موعدهم أن يحشروا زمـــرا يوم التغابن اذ لا ينفـع الحـــذر
مستـوسقين مع الداعي كأنهـــم رجل الجراد زفته الريح منتشـــر
وأبرزوا بصعيـد مستـو جـرز وانـزل العـرش والميـزان والـزبـــر
فمنهم فرح راض بمبعثـــــه وآخرون عصـوا مأواهم سقـــر
يقـول خزانهمـا ما كان عنـدكـم ألم يكن جاءكم من ربكم نـذر
قالوا : بلى فتبعنا فتيـة بطـــروا وغرنا طول هـذا العيش والعمـر (3)

وإذا ثبت ان هذا الشعر لأبن ابي الصلت – ولو انه لا ينسجم ومواقف أميـة من الرسول موقف الخصومة، بهجاء أصحابه، وتأييد مخالفيه، ورثاء أهل بدر من المشركين (فلمَ يكون النبيء هو الذي أخذ عن أميـة ، ولا يكون أميـة هو الذي اخذ عن النبيء ؟ ثم من ذا الذي يستطيع أن يقـول أن من ينحل الشعر ليحاكي القـرآن ملزم ان يلائم بين شعره وبين نصوص القرآن ؟ أليس المعقـول ان يخالف بينهمـا ما استطاع ليخفي النحل ويوهم ان شعره صحيح لا تكلف فيه ولا تعمـل ؟ (4).

كمـا اورد (ثوســدال Thusdal) صاحب كتـاب (مصادر الاسلام) شبهـات النـاقدين للقـرآن الكـريم، ومنهـا هذه الابيات التي نسبوها الى امـرىء القيس :

دنت السـاعة وانشق القمـــــر عن غزال صاد قلبي ونفـــــــر
احـور قد حـرت في أوصافـــــه ناعس الطـرف بعينيه حـــوَر

---

1) سـورة الكهـف 7 ـ 8 .
2) سـورة الملـك : 8 ـ 9 .
3) البستاني : المجاني الحديثة ـ ج ـ (1) 367 .
4) طه حسين : في الادب الجاهلي : 142 ـ 145 . ط (دار المعارف مصر 1958)

مـر يوم العيد في زينتـــــــه فـرماني فتعـاطى فعقـــــــر
بسهـــام من لحـــاظ فـــاتـــــك فتـركني كهشيم المحتظـــــر

ثم انه منذ بدء الوحي القرآني الى نهايتـه نرى ان النبيء صلى الله عليه وسلم لم يتحدث مع الذات الالهية حين تخاطبه بالوحي، ولم يقف منهـا موقف المناجاة والحوار كما كان موسى وعيسى عليهما السلام ، وان شخصه لا يردُ في القـرآن الاّ في واحد من موضعين : اما موضع المخاطب : عفا الله عنك، فأعرض عنهم وتوكل على الله، وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسـن.

واما موضع المتحدّث عنه : محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحمـاء بينهم. بينمـا نرى ان اشخاص انبياء العهد القـديم، أو شخص عيسى في العهد الجديد، انمـا يكـون كل منهم حاضرا حضور المتكلم لا المخاطب لانه هو الذي ينشيء الكلام ويتوجه به الى الناس باعتبار كونهم شعبه كمـا يقـول موسى عليه السلام، أو اخوانه كمـا يقول عيسى عليه السلام.

واما الله تعالى فنجد حضور ذاته العلية من خلال نصوص التوراة والانجيل حضور المخاطب المتوجه اليه بالدعاء أو بالمناجاة، أو حضور المتحدث عنه بطريق الحكاية والتبليغ لتعريف الناس به ودعوتهم اليـه.

فكان للقـرآن دون غيـره من الكتب السمـاوية هذه الميزة الـفريدة السامية باعتبار انه (كلمـة لله) اعني ان الله تعالى بذاته الجليلة هو المتكلم نفسـه بالكلمـة القـرآنيـة (1) كمـا يدل عليه ضميـر المتكلم : نحن خلقناهم وشددنـا أسـرهم، واذا شئنا بدلنـا امثالهم تبديلا (سورة الانسـان 28) واذا سألك عبادي عنّي فاني قريب (سورة البقـرة 86) .

ولا أدلّ على أن الوحي القـرآني خارج عن الذات المحمدية ، نزوله – رغم تباعد الازمـان – على نسق فكري موحد بعيد عن حدود الفكر البشـري في ذلك العصـر (ولو افتـرضنـا ان التفكيـر يمكن ان يحدث لا

1) الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور : فلسفة القرآن وشمولـه ، الملحـق الثقافي للعمل عدد 57 . س 2 ـ 1970/4/24 تونس .

شعوريا ولا ارادیا لدى فرد ما، فان النبيء رغم هذا لم يكن لديه الزمان المادي كي يتصور وينظم تعاليمه في البرهة الخاطفة للوحي) (1) التي كان يعاني فيها حالة خاصة، والتي ينزل فيها ما يتجاوز في الكم والكيف تلك الومضة السّريعة من الزمان، ولقد ألمع القرآن في كثير من اشاراته البارعة الى هذه الحقيقة بما فيه مقنع للرسول نفسه بضرورة الفصل بين ما هو نابع عن شعوره الخاص، ومعلوماته الشخصية، وبين الوحي القرآني حتى يعرف عن بيّنة مدى فضل الله عليه في تعليمه ما لم يكن يعلم. قال تعالى : (وكذلك اوحينا اليك روحا من امرنا ما كنت تدري ما الكتاب، ولا الايمان) (الشورى 52).

ولا ريب ان هذه الآية وأمثالها قد مرت بشعوره صلى الله عليه وسلم ومارس حقيقة هذا الفصل وحتميته التاريخية والنفسية، مما تجلى أثره في أمر أصحابه بكتابة ما ينزل عليه من القرآن، ونهيهم عن كتابة ما يقوله من احاديث. وفي هذه الآية : (ولقد ارسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك (القصص 78).

(يمضي الوحي القرآني ليس ابعد من الفكرة المحمدية فحسب، ولكن ابعد ممّا قد أوحى بالفعل) (2). وهل ادل نفسيا على انفصال شخصية الوحي عن شخصية الرسول من مخالفة القرآن لطبعه، وعتابه الشديد له في مثل هذه الآية : (ما كان لنبيء ان يكون له اسرى حتى يثخن في الارض، تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة، والله عزيز حكيم. لولا كتاب من الله سبق لمسّكم فيما أخذتم عذاب عظيم) (3). فلو انك تأملت فيما عوتب عليه وهو قبول الفداء من اسرى بدر، لكان اقرب الى نفسه الكريمة وطبعه الرحيم وهو خير ما يختاره من عرف برحمة اهله وهدايه قومه، وتأليف خصمه (وانما نبهه القرآن الى ما هو ارجح في ميزان الحكمة

1) مالك بن بنى : الظاهرة القرآنية : 213 .
2) المصدر السابق : 200 .
3) سورة الانفال : 67 ـ 68 .

الالهيـة. فهـل ترى في ذلك ذنبـا يستوجب عند العقل هذا التأنيب والتثريب ام هو مقام الربوبيـة، ومقـام العبـوديـة، وسنـة العـروج بالحبيب في معارج التعليم والتأديب ؟ (1) وكل هذا مما يفند المزاعم القائلة : بأن القرآن من آيات العبقـرية المحمدية بل يجب ان ننفي عنه صلى الله عليه وسلم هذه الصفة اطلاقا ان كانت العبقـرية كمـا قال كرتشمـر (Kretschemer) أحد علمـاء النفس، تقتضي لزوم عنصر المـرض النفسي كعـامل جوهري في شخصيـة العبقـري، بحيث لو فرضنـا ان صاحبه يستطيع التخلص منـه لكانت النتيجة المحتومة ان يفقد عبقـريتـه. وقد دعم رايه هذا بمـا دلت عليه تراجم العباقرة، وما اسفر عنه التحليل النفسي لشخصياتهم من خلال انتاجهم الفكري والفني، والتشـابه الملحـوظ في الظواهر السلوكية لدى كل من العبقـري والعصابي (2) (والناس يلذّ لهم التوهم بأن الافراد الذين يختلفـون عنهم لا بد انهم مصابون بعلـة ما) (3)
والحق انه لم تكن للرسول هذه القـدرة العجيبة على قيادة الجماهير والتأثير في نفـوسهم الا بمقدار ما اثّر فيه الوحي الالهي (وانزل الله عليك الكتاب والحكمـة وعلمك ما لم تكن تعلم، وكان فضل الله عليك عظيمـا) (4)

وهكذا يتبين عند تعليل تلك المفارقات بين ماضي الحياة المحمدية وحاضرها ان القـرآن لم يكن الا وليد تعليم جديد. وبذلك يصير البحث عن مصدر القرآن غير ذي موضوع، سيمـا وقد تظافرت الادلة العقليـة والنقلية والنفسية على ان القـرآن كتاب سماوي، مصدره هو مصدر الكتب السمـاويـة. فهو يوصي بمـا اوصت به، ويدعو الى ما دعت اليه من عقيدة صحيحـة وخلق قويم، ويصدق بمـا جاء به موسى وعيسى والأنبياء قبلهمـا من الوحي الالهي على أساس ان جميع الاديان السمـاوية تستمـد من نبع واحد، وتتفق فيما تدعو

---

1) محمد عبد الله الدراز ـ النبأ العظيم : 19 (ط : مصر 1960)
2) مصطفـى سـويـف : الاسس النفسيـة للابـداع الفنـى : 129 ـ 131 (ط : مصر ـ 1959)
3) آفاق الفن : ت : جبرا ابراهيم جبرا 56 .
4) سورة النساء : 113 .

اليه من حب ورحمة واستقامة واخلاص، قال عيسى عليه السلام (ما جئت لانقض الناموس بل لاكمله) (1). وقال محمد (ص) : انما بعثت لاتمم مكارم الأخلاق) (2) وقال تعالى : (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي اوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ان اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه (3).

ولكن ذلك لا ينبغي ان يحمل على الإعتقاد بأن الأديان السماوية — وان اتفقت في الاصول والأهداف — هي صور مكررة في تشريعها وطرق هدايتها الى الحق، لأن ذلك يقتضينا ان نلغي التاريخ، والا نقيم وزنا لسنة التطور البشري ونتجاهل ما يحيط بكل بيئة وعصر من ظروف خاصة : (وانزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه، فاحكم بينهم بما انزل الله ولا تتبع اهواءهم عما جاءك من الحق، لكلّ جعلنا منكم شرعة ومنهاجا، ولو شاء الله لجعلكم امة واحدة) (4).

---

1) انجيل متى . الاصحاح الخامس : 17 .
2) رواه مسلم . ج : 6 . ص : 115 .
3) الشورى : 11 .
4) سورة المائدة : 48 .